مفهوم دولوز«عن الواقع الافتراضي» مقابل الكائنات الحاسوبية الافتراضية[1]

Małgorzata Czarnocka[2]
Mariusz Mazurek[3]

المستخلص:

هل مفهوم جيل دولوز (1925-1995) Gilles Deleuze عن الواقع الافتراضي قريبٌ بما يكفي من مفهوم الواقع الافتراضي المستخدم في علوم الحاسب وفلسفة المعلومات فيما يتعلق بالأشياء التي يخلقها الحاسوب والواقع الافتراضي؛ بحيث يبرر تفسير هذا الأخير من خلال ذاك؟ هذا السؤال هو الهدف الرئيس لهذه الورقة. نهدف إلى إظهار أنه، خلافًا لأكثر تفسيراته شيوعًا؛ فإن مفهوم دولوز عن الواقع الافتراضي هو مفهوم معرفي epistemological وليس وجوديًا ontological، وأن هذا يُبطل الاعتقاد بأن مفهوم دولوز عن الواقع الافتراضي ومفهوم علوم الحاسوب قريبان بما يكفي لتبرير نقل أحدهما إلى الآخر.

الكلمات المفتاحية: الواقع الافتراضي Virtuality، نظرية الإدراك Theory of perception، جيل دولوز Gilles Deleuze.

1 . مقدمة

نعتقد أن الوقت قد حان لإعادة النظر في تفسير مفهوم الواقع الافتراضي عند دولوز، وهو التفسير الأكثر شيوعًا في فلسفة المعلومات والنقاشات الدائرة حول الثورة الرقمية digital revolution، وهذا تحديدًا هو هدف هذه الورقة. من خلال تحليل مفهوم الواقع الافتراضي كما ورد في كتاب "الواقع والافتراضي - Actual and the Virtua" الذي يُعدّ على الأرجح أهم أعمال دولوز في هذا المجال، سنحاول الإجابة عن السؤال التالي: هل من الممكن تطبيق فكرته عن الواقع الافتراضي في فلسفة المعلومات ـ من بين أمور أخرى ـ وذلك من خلال تحليل العوالم الافتراضية كما يفهمها علماء الحاسوب ومستخدموه وفلاسفة المعلوماتية philosophers of informatics? (DeLanda, 2013).

في النسخة الأكثر انتشارًا من مفهوم الواقع الافتراضي عند دولوز، يُعتبر المفهوم نفسه، بالإضافة إلى فكرة الواقعية المصاحبة له، مفهومين أنطولوجيين. وقد طرح هذا المفهوم، من بين آخرين، "مانويل دي لاندا"[4] Manuel DeLanda (1952-...) في كتابه "العلم المكثف والفلسفة الافتراضية" Intensive Science and Virtual Philosophy (DeLanda, 2013)؛ حيث ينسب إلى دولوز أنطولوجيا واقعية مناهضة للجوهرية. ويشير ديلاندا أيضًا إلى أن دولوز استعار التمييز الأنطولوجي بين الواقعي والافتراضي من هنري بيرجسون (1859-1941) Henri Bergson. ويشير ديلاندا إلى (Deleuze, 1991, pp. 96-97). انظر أيضًا (Deleuze, 2004, pp. 22-51; Deleuze & Loban, 2007). يضع سلافوي جيجيك[5] Slavoj Žižek (1949- ... التفسير الأنطولوجي في الصدارة، مما قد يُثير الشكوك، إذ إنه يسير على خطى دولوز، وينطلق من مفهوم الافتراضية في الفيزياء. كما أن عرضه مُبسطٌ للغاية. يزعم جيجيك أن الفرق الأنطولوجي بين الواقعي والافتراضي يُشابه العلاقة بين الجُسيم particle والتفاعل interaction بين الجُسيمات؛ إلا أن هذا لا يُقدم فهمًا صحيحًا لوظائف وخصائص الجسيمات الافتراضية وفقًا لنظرية الحقل الكمومي quantum field theory. كما لا يُقدم جيجيك صورة صحيحة لثنائية الموجة والجسيم wave-particle duality، التي لا ترتبط بالضرورة في الفيزياء بالافتراضية، والتي بدورها لا تُختزل بالضرورة إلى هذه الثنائية، كما يبدو أن الفيلسوف السلوفيني يعتقد ـ خلافًا للنظرية الفيزيائية ـ جيجيك أيضًا أن التفاعلات الفيزيائية والجسيمات الفيزيائية لها أنماط وجود مختلفة (Žižek, 2012, p. 4)[6]. لا يمكن اعتبار هذا صحيحًا إلا في إطار فهم محدد ومرفوض فلسفيًا لمصطلح "نمط الوجود" mode of existence. ومع ذلك، يمكننا أن نضع جانبًا كل الشكوك حول تأملاته في الجسيمات الافتراضية، لأن الأهم من وجهة نظرنا هو أن جيجيك يركز على المشكلة الأنطولوجية للافتراضية.

من المسلّم به أن فلسفة دولوز صعبة التفسير، بل ويمكن اعتبارها غامضة، ويعود ذلك جزئيًا إلى رفضها المنهجي للمفاهيم الفلسفية التقليدية، التي اعتبر دولوز أنه عفا عليها الزمن وباتت غير فعّالة. وفي الواقع، فقد سعى إلى إعادة بناء الفلسفة على أسس مفاهيمية جديدة تمامًا. مع ذلك؛ فإن استخدامه الفريد للمفاهيم وأسلوبه السردي المقتضب يجعلان من الصعب تحديد تفسير واحد لنظريته حول الواقع الافتراضي. علاوةً على ذلك، يُشير دولوز في تأملاته حول الواقع الافتراضي بشكلٍ متكرر إلى الفيزياء والرياضيات المتقدمة المعاصرة (cf. Žižek, 2012, p. 4) ، ولعل هذا هو السبب في أن مفهومه للواقع الافتراضي يُنظر إليه على

أنه مناسب بشكلٍ طبيعي لتفسير الواقع الافتراضي في عالم تكنولوجيا المعلومات.

يركز المعلقون والباحثون الذين يستلهمون من نظرية دولوز عن الواقع الافتراضي في أعمالهم [for example cf. Gaffney (2010), Lévy (1998), Rae (2014), Smith (2009)] بشكلٍ أساسي على نصٍ قصيرٍ ومترابط للغاية بعنوان "الواقع والافتراضي"، وهو الفصل الخامس من كتابه "حوارات" Dialogues (Deleuze, 2002). ونحن نعود إليه الآن، على الرغم من أنه بالنظر إلى انتشاره الواسع في الأدبيات، قد يتساءل المرء عما إذا كان مفهوم دولوز عن الواقع الافتراضي يحمل أي جديدٍ ليكشفه. ولا تشمل تحليلاتنا مفهوم الواقع الافتراضي عند دولوز بشكلٍ شامل. وكما ذكر أحد المراجعين المجهولين لبحثنا بحقٍ: "يتناول دولوز مفهوم الواقع الافتراضي (...) في وقتٍ مبكر منذ كتاباته عن البرجسونية، وكتاب "الاختلاف والتكرار" Difference and Repetition، وكتاب "منطق الحس" Logic of Sense، ثم يعود إليه مرةً أخرى في كتاباته عن السينما في منتصف ثمانينيات القرن العشرين. (...) في الواقع، يتخلل مفهوم "الواقع الافتراضي" جميع أعمال دولوز." ومع ذلك؛ فإن تحليل موضوع واسع النطاق كهذا يتجاوز نطاق أي بحثٍ علمي معياري. إضافة إلى ذلك، يتناول دولوز مشكلة الواقع الافتراضي بشكلٍ عرضي إلى حدٍ ما في بعض نصوصه. ففي كتاب "الاختلاف والتكرار"، لا يُعرّف الواقع الافتراضي إلا في الفصل الرابع باعتباره الحالة المميزة للأفكار ـ مستمدًا المفهوم (المعرفي) للأفكار من إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724-1804) ـ ويدّعي أنه "يمتلك واقعًا كاملًا بذاته"، "كونه مناقضًا للواقع وغير حقيقي" (Deleuze, 1994). تختلف الكائنات الافتراضية المعروضة في كتاب "الواقع والافتراضي" عن تلك المشار إليها في كتاب "الاختلاف والتكرار"، إلا أن كليهما معرفي ويشتركان في نمط الوجود نفسه. لذا، سنقتصر بشكلٍ أساسي على نصٍ واحد لدولوز، يُشار إليه غالبًا في فلسفة المعلوماتية، ويُعتبر ـ في رأينا ـ ممثلًا لجميع أعماله حول الافتراضية.

سنسعى جاهدين لإظهار أن كتاب "الواقع والافتراضي" يطرح مفهومًا معرفيًا للافتراضية، وهو، بتعبيرٍ أدق، نظرية للإدراك مقترنة بالذاكرة، وهي فرضية غير تقليدية إلى حدٍ ما بين نظريات الإدراك العديدة التي توارثناها عبر التاريخ. ورغم أن مصطلح "الإدراك الحسي" sense perception لا يظهر في النص (بل يظهر مصطلح "الإدراك" perception فقط)؛ فإننا ننطلق من افتراض أن هذا هو ما يبحث فيه دولوز، ربما بهدف توسيع مفهوم الإدراك ليشمل الذاكرة. تتسم نظرية دولوز بالمثالية، ولها نظريات سابقة في نظرية المعرفة الحديثة، مع أنها تختلف عنهم جميعًا اختلافًا كبيرًا في عدة جوانب مهمة. يستخدم دولوز مجموعة من المفاهيم المبتكرة، أبرزها "الافتراضي" و"الواقعي"، ويبدو أنه متأثر بشدة بهنري برجسون، ولا يشير إلى أي تقاليدٍ معرفية أخرى. إنه لا يحدد طبيعة نتائج الإدراك، ولا يذكر على الإطلاق التعبير اللغوي (النصي) عن هذه النتائج. cf. Ansell-Pearson (2005), Bluemink (2020), Braga (2019), Deleuze (1994), Lundy2017.

إننا نحلل آراء دولوز حول الواقع الافتراضي من منظورٍ محايدٍ قدر الإمكان، مع الحرص بشكلٍ خاص على تجنب أي تداخلات مع التيارات ما بعد الحداثية postmodernist (بقدر الإمكان). والأهم من ذلك، أننا لا نتساءل عن مدى توافق تأملات المفكر الفرنسي واستنتاجاته مع النظريات ما بعد الحداثية أخرى، سواءً كانت نظرياته الخاصة أو تلك التي طورها غيره. ورغم أن هذا الموقف المحايد قد يبدو غير مقبول في بعض الأحيان، إلا أنه مقصود منهجيًا، لأنه يتيح فهمًا جيدًا للطابع العام لنظرية دولوز. من خلال فصلها عن الغموض ما بعد الحداثي، نستطيع مقارنتها بمفاهيم أخرى للواقع الافتراضي. وبعد تحررها من إرث ما بعد الحداثة، تصبح قابلةً للتطبيق في سياقاتٍ نظرية متنوعة، وهذا ما يفعله الباحثون عندما يستخدمونها لدراسة جوهر الكائنات الافتراضية التي يولدها الحاسوب والواقع الافتراضي.

2. الافتراضية ونظرية التعددية
Multiplicities Theory

يُولي دولوز أهميةً بالغةً للافتراضية، ويربطها مباشرةً بجوهر الفلسفة، التي يفهمها كنظرية للتعددية؛ حيث تتألف كل واحدةٍ منها من عناصر فعلية وافتراضية. (Buchanan, 2010; Kalaga, 2003). ومع ذلك، فهو لا يعني أن على الفلسفة أن تنشغل بكلياتٍ شاملة لمجالات الواقع بأكملها، على غرار هيجل Hegel (1770-1831)؛ فعلى الرغم من أن التعددية في نظره هي نظام، إلا أنها ليست كلية. يشرح دولوز فكرة التعددية مستعينًا بالمفاهيم والنظريات الرياضية.

إن فكرة [التعددية ـ MC، MM] هي تعددية مستمرة ومحددة ذات أبعاد ن. اللون ـ أو بالأحرى فكرة اللون ـ هي تعددية ثلاثية الأبعاد. ونعني بالأبعاد المتغيرات أو الإحداثيات التي تعتمد عليها الظاهرة؛ ونعني بالاستمرارية مجموعة العلاقات بين التغيرات في هذه المتغيرات (...) وبحسب التعريف، نعني العناصر المحددة بشكلٍ متبادل بهذه العلاقات، وهي عناصر لا يمكن أن تتغير مالم تتغير التعددية ترتيبها ومقياسها [مقتبس عن DeLanda, from Deleuze (1994, p. 182)].

يذكر مانويل دي لاندا:

إن التعريف الرسمي [للتعددية ـ MC، MM] تعريفٌ تقني للغاية، ويشمل عناصر من عدة فروع مختلفة من الرياضيات: الهندسة التفاضلية differential geometry، ونظرية الزمر group theory، ونظرية الأنظمة الديناميكية dynamical systems theory (DeLanda, 2013, p. 1).

ترتبط فكرة التعددية بالفكرة الرياضية للمنظومة. بعباراتٍ بسيطة للغاية، المنظومة هي تعميم لمفاهيم المنحنى والسطح، وأبسط تعريف لها هو "المنظومة هي فضاء طوبولوجي إقليدي محليًا".(Weisstein, 2016).

يقول دولوز إن استكشاف التعددية هو غاية الفلسفة، لكنه لا يذكر على الإطلاق ما كان هدف الفلسفة منذ العصر الأيوني Ionic، ومرورًا بمختلف المفاهيم والنظريات على مر العصور وصولًا إلى إدموند هوسرل Edmund Husserl (1859-1938): وهو اختراق هذه التعدديات (بغض النظر عن مدى تعقيد المصطلحات الرياضية التي نستخدمها لشرحها) والوصول إلى الجوهر، وإيجاد العناصر الأساسية القليلة في بنية هذه التعدديات. إن الهدف الرئيس، على سبيل المثال، لفلسفة هوسرل هو إزالة الطبقات الخارجية للواقع تباعًا في عملية اختزال فينومينولوجية، وما ينتج عنها من كشف جوهر الأشياء. أما الهدف الأكثر افتراضًا وسعيًا في الفلسفة فهو اكتساب فهم عميق لأساس الواقع [cf. e.g. Husserl (1982)].

يُوكل دولوز إلى الفلسفة مهمةً جذريةً مناهضةً للأصولية بشكلٍ جذري، تتمثل في قلب الأفلاطونية رأسًا على عقب. وكما يقول في كتابه "منطق الحس": "إن قلب الأفلاطونية" يتمثل أولًا وقبل كل شيء في إزالة الجوهر واستبداله بالأعراض، بوصفها تيارات من التفردات" (DeLanda, 2013, p. 37; Deleuze, 2015, p. 53). وهو بذلك لا يُحدد أي نوع من أنواع التعددات الوجودية (الميتافيزيقية) التي ينبغي أن تسعى إليها الفلسفة، ولا يُبين بوضوح ما إذا كانت تنتمي إلى المجال الوجودي بوصفها مجموعةً من الكائنات، أو أنها نتاجٌ للوعي الإنساني، وبالتالي فإنها بناءات ذاتية ناتجة عن نشاط الذات (بما في ذلك نشاطها المعرفي) ومحصورة في المجال الجوهري للذات. وكما ذكرنا، يعتبر ديلاندا أن أنطولوجيا دولوز واقعية؛ فكل أنطولوجيا كذلك بمعنىً ما، إذ تفترض الأنطولوجيا وجود أشياء تُصنّفها كعناصر من الواقع. ومع ذلك؛ فإنه يُخفق في توضيح كيف تُتيح هذه الأنطولوجيا المعرفية المثالية للأشياء، مثل الصور الافتراضية والأشياء الفعلية، أن تتشكل إلى ما نعتبره واقعًا. كما أنه لا يُشير إلى الفلسفة في سياق اللغة، وهو ما يُعدّ إعلانًا واضحًا مُناهضًا للميتافيزيقا (وبالتالي مُناهضًا للأنطولوجيا) بالنسبة لحديث ما بعد الحداثة.

يزعم دولوز أن كلًا من التعددات التي تُشكّل موضوع الفلسفة تتألف من عناصر واقعية وافتراضية، وأن كل موضوع هو مزيج من عنصر من كل نوع. هنا، تُعدّ الافتراضية إحدى الفئتين الأساسيتين لدراسة التعددات، وهو الهدف الرئيس للفلسفة في حد ذاتها. كما يرى دولوز أنها إحدى الفئات الفلسفية الرئيسية التي تُتيح فهم الواقع (بأي شكلٍ كان) (Hulse, 2008; Mullarkey, 2004): وبالتالي، فإنّ الافتراضية هي سمة أساسية وضرورية لكل ما هو موجود، وهي المادة التي يُخلق منها الواقع.

3. الإدراك المرتبط بالذاكرة

بعد هذا البيان العام حول هدف الفلسفة والدور الأساسي للأشياء الافتراضية والواقعية في سعيها لتحقيقه، ينتقل دولوز إلى مشكلة أضيق نطاقًا بكثير، ألا وهي الإدراك، ولا يعود إلى أهداف الفلسفة ومهامها في النص قيد التحليل. ومع ذلك، تظل الأشياء الافتراضية والواقعية مسألة محورية، إلا أنها الآن كأشياء حاضرة وأساسية في الإدراك المرتبط بالذاكرة.

في سعيه لاستكشاف طبيعة الإدراك، يستخدم دولوز مفهوم الواقع الافتراضي في الفيزياء، والذي ربما يراه بمثابة اقتراح أو أداة استكشافية أو مؤشر أو مصدر إلهام أو تشبيه ـ ولكن المفهوم نفسه، الذي يعد نواة النهج ما بعد الحداثي للواقع الافتراضي، لم تتم مناقشته في كتاب "الواقع والافتراضي" إلا بشكلٍ سطحي.

بعباراتٍ أبسط، الجسيمات الافتراضية في الفيزياء هي كائنات ذات عمر قصير للغاية بحيث يتعذر اكتشافها تجريبيًا، وبالتالي فلا وجود لها إلا في النماذج والنظريات الفيزيائية. في الواقع، يعتبرها البعض أجسامًا نظرية موجودة، ولكنها غير قابلة للملاحظة بشكل أساسي، تنتمي إلى "مكونات" furnishings الطبيعة، في حين يعتبرها آخرون بناءً نظريًا خياليًا يُستخدم في النماذج الفيزيائية لأغراض تفسيرية. وبالتالي، يوجد رأيان أو وجهتا نظر حول حالة وجود الجسيمات الافتراضية: الأولى، أنها موجودة كغيرها من الأجسام المادية في الطبيعة؛ والثانية، أنها مجرد وهم يُستخدم للتفسير. في الحالة الأخيرة، تكتسب الجسيمات الافتراضية وضعًا وجوديًا خاصًا ـ بين الوجود والعدم (فهي موجودة "بسبب" الأجسام القابلة للملاحظة) ـ أو وضعًا وجوديًا ـ معرفيًا خاصًا (إذ إن إدراكها فريد للغاية بحيث يستحيل عمليًا الجزم بوجودها من عدمه). ومهما يكن من أمر؛ فإن طريقة وجودها غير واضحة للفيزيائيين كما هي غير واضحة للفلاسفة.

إن وصف خصائص الجسيمات الافتراضية عند دولوز يتسم بالإيجاز؛ ولا يسع المرء إلا أن يفترض أنه يركز فقط على تلك الخصائص التي يراها مهمة لنظريته في الإدراك.

وينصبّ اهتمامه الرئيسي على عمرها القصير للغاية. وعلى خطى الفيزيائيين، يُعرّف دولوز الجسيمات الافتراضية بأنها جسيمات يكون انبعاثها وامتصاصها وظهورها وتلاشيها لحظيًا، وتدوم لفترةٍ زمنية أقصر مما يمكن أن نتخيله، وتخضع لمبدأ عدم اليقين uncertainty (Deleuze, 2002, p. 148). ويقول إن الصور الافتراضية تُحيط بجسمٍ حقيقي، ثم تتلاشى، وتُخلق صور افتراضية جديدة ـ وبعبارته الخاصة، تُشكّل سحب الصور الافتراضية "كونًا افتراضيًا" virtual cosmos (Deleuze, 2002, p. 148). وفي الحاشية رقم 9 من الكتاب، يذكر أن علم البصريات optics هو الذي يتخذ الكائن الفعلي والصورة الافتراضية كنقطة انطلاق، ويُبيّن الشروط التي يصبح بموجبها الكائن الفعلي افتراضيًا والصورة الافتراضية فعلية. وهذا كل ما قاله عن الافتراضية في الفيزياء (Deleuze, 2002, p. 158) ـ من دون أي إشارة إلى الأدبيات ذات الصلة. لذا، يمكن للمرء أن يفترض أن هذه الافتراضية عبارة عن مصفوفةٍ matrix واسعةٍ للغاية، وهي فكرة يستند إليها بشكلٍ فضفاض وينقلها إلى مجال التأصل[7] (الملازمة) immanence.

يصوغ دولوز مفهومه عن الواقع الافتراضي جنبًا إلى جنب مع مفهوم الكائن الفعلي: فبالنسبة له، يرتبط ما هو افتراضي ارتباطًا وثيقًا بما هو فعلي. فالصور الافتراضية والكائنات الفعلية حاضرة في الإدراك والذاكرة ككائنات مثالية موجودة فقط في المجال الداخلي (الذي يفهمه دولوز بطريقةٍ فريدة: فهو لا يربطه صراحةً بالذات العارفة). وهكذا، بانتقاله من المفهوم الأولي للواقع الافتراضي ـ مفهوم الجسيم الافتراضي ـ إلى الكائنات الافتراضية الموجودة في الإدراك، ينتقل دولوز من الكائن المادي إلى الكائن المثالي الموجود في المجال الداخلي. ومما يزيد الأمر تعقيدًا، كما ذكرنا سابقًا، أن التفسير الأنطولوجي الواقعي للواقع الافتراضي في الفيزياء ليس هو التفسير الوحيد، إذ يُعتبر أحيانًا ضربًا من الخيال النظري (Jaeger, 2019).

ثمة قصورٌ آخر في شرح دولوز للإدراك يتعلق بمصطلحي "الصورة الافتراضية" و"الكائن الافتراضي"، إذ لا يُفرّق بينهما بشكلٍ كافٍ. ففي الواقع؛ يربط الصور الافتراضية بالكائنات التي تنشأ في الإدراكات المرتبطة بالذاكرة، بل ويصف الذكريات بالصور الافتراضية:

إن التطابق الدرامي لديناميكياتها هو ما يجعل الإدراك يُشبه الجسيم: فالإدراك الفعلي يُحيط نفسه بسحابة من الصور الافتراضية، موزعة على دوائر متحركة متزايدة البعد والاتساع، والتي تُنشئ بعضها بعضًا وتُزيل بعضها بعضًا. هذه ذكريات من أنواع مختلفة، لكنها لا تزال تُسمى صورًا افتراضية لأن سرعتها أو إيجازها يُخضعها هي الأخرى لمبدأ اللاوعي (Deleuze, 2002, pp. 148-149).

لا يوجد فرق وجودي أو معرفي بين الشيء الفعلي والصور الافتراضية (مع أن الأخيرة أقل يقينًا رغم تأكيدات دولوز)، ولا يوجد حد فاصل محدد بينهما:

يشمل مستوى الوجود كلًا من الافتراضي وتحققه الفعلي في آنٍ واحدٍ، دون وجود حد فاصل يمكن تحديده بينهما (Deleuze, 2002, p. 149).

يحتوي مستوى البقاء أو الوجود الفعلي على كلٍّ مما هو افتراضي وتجسيداته. وهنا، لا تختلف أنماط وجود الكائنات الافتراضية والواقعية، كما هو الحال على سبيل المثال في نظرية أرسطو[8] (ق.م. 384-322) Aristotle. ويمكن القول إن الواقعي (موضوع الإدراك) والافتراضي (صور موضوع الإدراك المخزنة في الذاكرة) لهما نمط الوجود نفسه ـ فكلاهما مثالي وذاتي. إلا أن هذا الوصف مشكوكٌ فيه إلى حدٍ ما، إذ إن تفسيرات استنتاجات دولوز بالمصطلحات الفلسفية التقليدية غير مؤكدة، وهذا يتعلق أيضًا بالذاتية. في الواقع، وفي معارضةٍ واضحة للتقليد المتعالي، لا يذكر دولوز الذات الفردية، مع أنه يتحدث عن اللاوعي والذاكرة والإدراك ـ والتي تبدو، على ما يبدو، قوى وحالات نموذجية للذاتية الفردية.

في مستوى التأصل أو الوجود الفعلي، يتحلل الكائن الفعلي إلى عددٍ هائل من الصور الافتراضية التي تظهر وتختفي باستمرار، والتي تفلت من أي إدراكٍ واعٍ نظرًا لقصر مدة وجودها[9]. ومع تفكك الصور الافتراضية المتتالية وظهور صور جديدة، يُحيط بالكائن الفعلي المزيد والمزيد من الصور المختلفة ـ "ومضات" flashes، وهي تصورات لحظية للذاكرة لا تُشكل فقط ـ كما في نظرية الإدراك التقليدية ـ موضوع الإدراك، بل تُخلق بواسطته أيضًا. وهناك أيضًا حركة في الاتجاه المعاكس، عندما تقترب الصور الافتراضية من الكائن الفعلي (الذي، بصفته موضوع الإدراك المُشكَّل، له نظائر افتراضية في الذاكرة). لا تختلف الصور الافتراضية كثيرًا عن الكائن الفعلي. فالذاكرة لا تُنتج صورة واحدة ثابتة بعد فعل الإدراك، بل صورًا افتراضية تظهر في الوقت نفسه الذي يحدث فيه فعل الإدراك: "الذاكرة صورة افتراضية معاصرة للكائن الفعلي، هي قرينه أو هويته، هي "صورته في المرآة" (Deleuze, 2002, p. 150). وهكذا؛ فإن الفعلي (موضوع الإدراك المُكوَّن) يتعايش مع الافتراضي (Deleuze, 2002, p. 150).

الصور الافتراضية هي كائنات موجودة في اللاوعي، وهي مجموعة من الصور التي تتغير بمرور الوقت وتشكل الكائن الفعلي: "... تندمج جميع المستويات في مستوى واحد متبعةً المسار المؤدي إلى الفعلي" (Deleuze, 2002, p. 150). تقترب هذه الفكرة من فكرة أن الكائن يتشكل في وعي الذات

من الأحاسيس، وهي الفكرة التي تظهر في نظرية الإدراك لدى ديفيد هيوم (1711-1776) David Hume، والتي ترى أن موضوع الإدراك عبارة عن حزمة من الانطباعات impressions، وكذلك في مفاهيم الإدراك الأخرى المتجذرة في المثالية والواقعية غير المباشرة. ووفقًا لدولوز؛ فإن الكائن الفعلي يتشكل أيضًا من الصور الافتراضية، والتي تتشكل بدورها من الكائن الفعلي. وهكذا؛ فإن تكوين موضوعات الإدراك (الواقعية والافتراضية) في هذه الحالة ثنائي الاتجاه، أي حلقة تغذية راجعة feedback loop.

وهكذا، يصوغ دولوز نظرية إدراكية لها سوابق في نظرية المعرفة الحديثة والمعاصرة. تفترض هذه النظريات السابقة أن البيانات الحسية postulate sensual data والانطباعات والتمثيلات الذهنية mental representations (الفسيولوجية physiological، الناتجة عن تحفيز دماغ الفرد stimulation of the subject's brain، أو غير المادية immaterial، الذهنية) التي تتشكل في عملية الإدراك هي النتائج ما قبل لغوية pre-linguistic ـ أو، بشكلٍ أعم، غير لغوية non-linguistic للإدراك. بالنسبة لدولوز؛ فإن الكائن الفعلي مشابه للكائنات المذكورة التي يُقال إنها تنتج عن الإدراك بمختلف أشكاله. تختلف نظريات الإدراك في مناهجها البحثية وأجهزتها المفاهيمية conceptual apparatus، ولكن لم تستخدم أي من النظريات المذكورة هنا، ولا أي من النظريات الموجودة اليوم، مفهومي الواقعية والافتراضية ـ باستثناء نظرية برجسون. لذلك؛ فإن دولوز ليس رائد مفهوم الواقع الافتراضي[10] (Esposito, 2007; Gray, 2013; Skagestad, 1998) ؛ في الفلسفة الحديثة ـ اليوم، وقد استقى فكرة شرح الإدراك بمساعدة الواقع الافتراضي من برجسون نفسه ـ على الرغم من أنه يجب القول إن كلا الفيلسوفين بعيدان إلى حدٍ ما عن النهج السائد في دراسة الإدراك[11].

تختلف نظريات الإدراك الحالية، سواء كانت مثالية أو واقعية إلى حدٍ ما، في الأدوات المفاهيمية والمصطلحات التي تستخدمها لوصف الكائن الذي يشكله الفاعل في عملية الإدراك، كما أن ترجمة مصطلحات ومفاهيم إحدى النظريات إلى نظرياتٍ أخرى أمر صعب، إن لم يكن مستحيلًا. فعلى سبيل المثال، لا يتطابق مفهوم البيانات الحسية data conception مباشرةً مع مفهوم الكائن أو الصورة الافتراضية في الإدراك، أو مفهوم التمثيل العقلي في النظرية المعرفية، إذ إن كل هذه المفاهيم متأصلة في نظرياتها الخاصة.

4. تفرد نظرية الإدراك عند دولوز

تختلف نظرية الإدراك عند دولوز عن غيرها من مفاهيم الإدراك الأخرى في العصر الحديث والمعاصر من عدة جوانب. فهي تتمتع بنطاقٍ أوسع، لأنها تشمل الذاكرة. يؤكد دولوز أن الإدراكات مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بأفعال الذاكرة، وهو ما تشرحه إليوت روس ألبرت[12] Eliot Ross Albert، مترجمة النص محل النقاش هنا، على لسان برجسون بأنه: **"اللحظة التي يكون فيها التذكر (...) قادرًا على الاندماج بشكلٍ كامل مع الإدراك الحالي بحيث لا يمكننا تحديد أين ينتهي الإدراك أو أين تبدأ الذاكرة"**[13]. كما يشير دولوز إلى برجسون؛ حيث يجد فيه الرابط بين الإدراك والذاكرة. تقول فكرة الإدراك التي استقاها من برجسون إن الذاكرة بالنسبة للإدراك هي مثل صورة المرآة بالنسبة للشيء المنعكس فيها. ويقول برجسون أيضًا ـ ويوافق دولوز على ذلك ـ إن الشيء يمكن لمسه ورؤيته؛ يمكنه أن يؤثر علينا، ويمكننا نحن أيضًا أن نؤثر عليه؛ فهو يحمل في طياته وعدًا بأفعالٍ ممكنة، وبهذا المعنى فهو حقيقي[14].

تحدث عمليات الإدراك بسرعة فائقة وتكون قصيرة للغاية، لدرجة أنها تتم دون وعي. ويمكن القول إنها لا تجد الوقت الكافي لتصل إلى الوعي، لأنها تختفي في غمضة عين. ونظرًا لطبيعتها المتقلبة، وتكوينها واختفائها اللحظيين، يرى دولوز أن هناك ما يبرر اعتبارها مرتبطة بالجسيمات الافتراضية الموصوفة في نظرية الحقل الكمومي. ومع ذلك، إذا كانت أفعال الإدراك تحدث فقط دون وعي؛ فإن ذلك يتعارض مع معرفتنا العامة عن الإدراك؛ فلا شك في أن البشر واعون بإدراكاتهم.

لا يتطرق دولوز إلى مشكلة انتقال أفعال الإدراك من اللاوعي unconsciousness إلى الوعي. ويمكن للمرء أن يفترض أن مصطلح "اللاوعي"، الذي يظهر مرةً واحدة في نهاية الفقرة الأولى من النص محل النقاش، قد ورد هناك عرضًا ولا يعد من بين أفكاره المركزية. أما الفكرة المركزية، والموجودة في عدة مواضع من النص ـ وكذلك في كتابات أخرى لدولوز ـ فهي مفهوم مستوى التأصل؛ أي التأصل بحد ذاته. إذا ربط دولوز مفهومه عن التأصل الذي يعني ملازمة الأصل في الفلسفة المتعالية، فإنه ـ كما يمكن القول ـ يشمل الوعي. ومع ذلك، يبقى هذا مجرد افتراض، إذ لم يصرح دولوز نفسه بذلك صراحةً.

يختلف مفهوم دولوز للإدراك أيضًا عن نظريات الإدراك الفلسفية الأخرى في أنه يُضاعف عدد الأشياء التي تنشأ في عملية الإدراك. يزعم دولوز أن الشيء الفعلي لا يرتبط بصورةٍ افتراضية واحدة، بل بتياراتٍ من هذه الصور مُرتبة في دوائر، وهو مفهوم استعاره من برجسون (Deleuze, 2002, p. 158, footnotes 8, 9). تنبعث الأشياء الفعلية وتمتص الصور الافتراضية، والتي تقع على مسافاتٍ متفاوتة منها، وتتوافق معها، وربما تكون نسخًا ـ وليست بالضرورة

نسخًا مطابقة ـ لموضوع الإدراك الذي يُشكل نفسه. يُحيط بالشيء الفعلي سحابة متغيرة من الصور الافتراضية، التي يحدث انبعاثها وامتصاصها وظهورها وتلاشيها في غضون فترةٍ زمنية أقصر مما يستطيع أي موضوع أن يتخيله أو يدركه. ونتيجة لذلك، يتلاشى الكائن الفعلي، مُتحولًا في مستوى الوجود إلى سحابة مُتقلبة من الصور الافتراضية، وهي كائنات تم إنشاؤها في الذاكرة اللاواعية. ولا يستطيع الفاعل إدراك الصور الافتراضية بوعي نظرًا لقصر عمرها.

تتجدد الصور الافتراضية المتلاشية من خلال إصدار صور افتراضية أخرى أعلى مرتبةً. تُشكل جميعها تيارًا متصلًا، ولا يمكن تقسيمها إلى كائنات إلا من خلال حالة تفرد معينة (Deleuze, 2002, p. 149). قد تكون حالة التفرد هذه هي الذات البشرية، الذي تقسم سحب الصور الافتراضية المتراصة بشكلٍ طبيعي في تيارٍ متصلٍ من الذكريات، أو الأشكال التي تُقدم بها نتائج الإدراك.

تؤثر الصور الافتراضية، التي تنشأ في الإدراكات كصورٍ لذاكرة الكائن الفعلي، على الكائن الفعلي نفسه. وتؤدي الصور الافتراضية دور الموضوعات التي تجسد الكائنات الفعلية أو تشكلها:

فالفعلي هو المُكمّل أو الناتج، أي موضوع التجسيد، الذي لا يمتلك سوى الافتراضي كفاعلٍ له. والتجسيد هو من اختصاص الافتراضي (Deleuze, 2002, p. 149).

ثمة تطابق بين الأشياء المادية والصور الذهنية، فهما مرتبطان ارتباطًا لا ينفصم. وبهذا، تلعب الصور الذهنية دورًا محوريًا في تكوين الأشياء المادية التي تشكل موضوعات الإدراك. وتستند عملية الإدراك إلى عملية الذاكرة وترتبط بها ارتباطًا وثيقًا.

وفقًا لرؤية دولوز، لا يخلق الإدراك موضوعًا واحدًا (كما تفترض معظم نظريات الإدراك)، بل يخلق العديد من موضوعاته، التي تتغير وتختفي وتُنتج غيرها تحت تأثير سحابة متغيرة من الصور الافتراضية. تتشكل هذه الصور في الإدراك، لكنها ليست موضوعاته ـ فالموضوعات الفعلية هي التي تشكل موضوعاته. إن موضوع الإدراك (الموضوع الفعلي) ليس موضوعًا ماديًا في الطبيعة، بل موضوع في مستوى الوجود. يقول دولوز إن صوره في الذاكرة المهتزة ـ الصور الافتراضية ـ تؤثر عليه وتُغيره، وتُشكله في عملية تكوينه. لذلك، لا يوجد موضوع واحد للإدراك، بل سيل من الكائنات المُشكلة بواسطة سحابة متغيرة من الصور الافتراضية. إن التكوين المتعدد لموضوع الإدراك يُميز المفهوم الدولوزي عن نظريات الإدراك المثالية والواقعية الأخرى (ضمن الواقعية المتوسطة). ما لا ينفرد به هو البناء ثنائي الاتجاه لموضوع الإدراك؛ أي التأثير المتبادل بين الموضوع الفعلي والصور الافتراضية المحيطة به.

تُعدّ نظرية دولوز في الإدراك نظريةً مثالية، لكنها مثالية غير نمطية تُهمّش ـ بل وتسعى إلى القضاء على ـ مشاركة الذات الإدراكية. ففي حين أن الذات الإدراكية هي بالضبط الفئة الرئيسية في النظريات المثالية الأخرى، وهي التي تُجري عمليات الإدراك وتصوغ المعرفة الحسية. ويبدو أن دولوز يسعى نحو مثالية بلا ذاتية؛ حيث تكون عمليات الإدراك خالية من الشروط الذاتية، وبالتالي، موضوعية بمعنى ما. وإذا كان هذا هو هدفه بالفعل، فهو هدف مشكوك فيه إلى حدٍ ما بسبب إدخاله لمستوى التأصل، وهو في نهاية المطاف ذاتي بحت (على الأقل بالمعاني الشائعة للمصطلح). وفي نهاية المطاف، يبقى من غير المؤكد ما إذا كان دولوز يريد حقًا استبعاد الذات الإدراكية ـ إذ يبدو أنه يفترض وجودها ضمنيًا باللجوء إلى مستوى التأصل، الذي يضع فيه كلًا من الموضوع الفعلي والصور الافتراضية، وبالتأكيد على أن الصور الافتراضية تُخلق و"تحدث" في اللاوعي.

كما يقول دولوز أيضًا إن ما يحدث في الإدراك المرتبط بالذاكرة يجري في فراغٍ معرفي: فليس هناك ما يربط بشكلٍ صريح بين الموضوع وسحابة الصور الافتراضية المتغيرة، ولا نملك أي فكرة عن الكيفية التي يخلق بها الموضوع هذه الصور ويعمل بها. لذا، يمكن القول إن مثالية دولوز مطلقة: مثالية لا ترفض "سذاجة" الواقعية فحسب، بل تسعى أيضًا إلى استبعاد الوجود الحقيقي للذات المعرفية. ويمكن استنتاج أن الصور الافتراضية لا تُخلق من قِبل الذات، بل تنشأ وتختفي وتؤثر على الشيء الواقعي من تلقاء نفسها. كما أن مستوى التأصل نفسه بلا ذات، وبالتالي يُفهم بشكلٍ مختلف تمامًا عما هو عليه في الفلسفة المتعالية.

يكمن الاختلاف الرئيسي بين نظرية دولوز ومعظم نظريات الإدراك الأخرى في استخدامها لمفهوم اللاوعي ونقل "مركز" الإدراك (إلى جانب الذاكرة) إلى مجال اللاوعي. هل تعمل الأشياء الفعلية أيضًا في اللاوعي، أم أنه لا يحوي سوى صور افتراضية ـ صور الذاكرة؟ إذا كانت الأخيرة نسخًا من الأولى تحيط بها عن قرب، فيمكن للمرء أن يستنتج أن الأشياء الفعلية التي تُخلق في الإدراك تقع في اللاوعي. إلا أن هذا يؤدي إلى تناقض جوهري مع الاعتقاد الشائع والضروري حول أفعال الإدراك الواعية.

يدعي دولوز أن الإدراك مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالذاكرة، وأنه في هاتين العمليتين، يتشكل الكائن الفعلي ديناميكيًا من خلال الصور الافتراضية، وعلى العكس، تتشكل الصور الافتراضية بواسطة الكائن الفعلي. فالكائن الفعلي هو موضوع الإدراك، بينما تُخلق الصور الافتراضية في الذاكرة وتعكس موضوع الإدراك:

فالذاكرة ليست صورة فعلية تتشكل بعد إدراك الشيء،

بل هي صورة افتراضية تتعايش مع الإدراك الفعلي للشيء. الذاكرة صورة افتراضية معاصرة للشيء الفعلي، نسخته المطابقة، "صورة مرآته" (Deleuze,2002, p. 150).

إن الشيء الفعلي، أي موضوع الإدراك، يندمج مع صورته الافتراضية (التي تنتمي إلى الذاكرة)، وفي الوقت نفسه يظلان منفصلين:

هناك اندماج وانقسام، أو بالأحرى تذبذب، وتبادل دائم بين الشيء الفعلي وصورته الافتراضية" (...) وبسبب هذا التبادل المستمر، تتحول الصور الافتراضية باستمرار إلى صور فعلية: "لا تتوقف الصورة الافتراضية أبدًا عن التحول إلى صورة فعلية. تستوعب الصورة الافتراضية كل واقعية الشخصية، وفي الوقت نفسه الذي لا تكون الشخصية الفعلية أكثر من مجرد افتراضية"(Deleuze, 2002, p. 150).

وهذا يعني أن موضوع الإدراك يتأثر باستمرار بالصور الافتراضية التي تتكون في الذاكرة في اللحظة نفسها التي يحدث فيها الإدراك، وأنه بسبب هذا التبادل بين الإدراك والذاكرة، لايكون موضوع الإدراك ولا الصور المتكونة في الذاكرة ثابتين، بل يشكل كل منهما الآخر باستمرار. والأهم من ذلك، أن الفرق بين الصورة الافتراضية والموضوع الفعلي يصبح غير واضح.

لا يمكن الجزم بأن للصور الافتراضية والأشياء الفعلية أنماط وجود مختلفة. ومع بعض التحفظات (الموضحة أدناه)، يمكن القول إن كلًا من الصور الافتراضية والأشياء الفعلية هي كائنات مثالية تنتمي إلى لاوعي الذات المدركة، وربما أيضًا إلى مجال وعيها ـ على الرغم من أن هذا مجرد افتراض مبدئي. ويزداد الأمر تعقيدًا بسبب حقيقة أن دولوز، كما ذكرنا سابقًا، يتجنب إدراج فئة الذاتية على الرغم من إشارته المستمرة إلى مستوى التأصل ـ الذي يبدو مستحيلًا بدون وجود ذات، أو على الأقل غامضًا ومختلفًا عن مجال التأصل في الفلسفة المتعالية. وذلك للأسباب التالية: أولًا، مجال التأصل المتعالي ذاتي بشكل مطلق، في حين لا يبدو كذلك عند دولوز. ثانيًا، في الفلسفةً المتعالية، مجال التأصل واعٍ، وفي حالة دولوز، لا واعٍ في الغالب أو حصرًا. ثالثًا، لا يقتصر وجود مجال التأصل علىً اللاوعي فحسب، بل يمتد أيضًا إلى اللغة:

يحتوي مستوى التأصل على كلٍّ من التجسيد بوصفه علاقة بين الافتراضي ومصطلحات أخرى [بخط مائل ـ MC، MM]، وحتى الفعلي بوصفه مصطلحًا[15] [بخط مائل – MC، MM] يتم تبادل الافتراضي معه (Deleuze, 2002, p. 152).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأطروحة، التي تظهر قرب نهاية النص الذي تم تحليله، تُغيِّر وتبدد جوهريًا محتوى نظرية دولوز. فلو كان لها أن تلعب الدور الرئيسي في هذا التصوُّر، لكان لا بد من النظر إلى مستوى التأصل على أنه يتألف من مصطلحاتٍ وتعبيرات لغوية، وليس على أنه ينتمي إلى مجال اللاوعي، أو ربما الوعي أيضًا.

باختصار، لا بد من القول إن نظرية الإدراك عند دولوز تختلف في عدة جوانب مهمة عن المفاهيم المعرفية الأخرى للإدراك. فمفهوم دولوز عن الافتراضية لا يمت بصلةٍ تُذكر إلى الافتراضية في الفيزياء، إذ إنه مستوحى بشكلٍ عام من مفهوم الجسيم الافتراضي في نظرية الحقل الكموميٍ، والذي ينقله إلى مجالٍ مختلف تمامًا، ألا وهو مجال الإدراك المثالي المرتبط بالذاكرة.

5. الافتراضية عند دولوز مقابل الافتراضية في علم المعلوماتية

وأخيرًا، نصل إلى مشكلة يُمثل حلها الهدف الرئيسي لهذه الورقة. هل من الممكن تطبيق مفهوم دولوز عن الافتراضية على فلسفة المعلوماتية واستخدامه لشرح الكائنات والعوالم الافتراضية التي تُنشئها أجهزة الحاسب؟ وكيف يُمكن تحقيق ذلك؟

يرى دولوز أن الصور الافتراضية هي كائنات عابرة؛ أي كائنات تُخلق في الذاكرة أثناء عملية الإدراك وتختفي على الفور. أما الكائنات الفعلية فهي موضوع الإدراك، ولا تقتصر على تكوينٍ واحد، بل تُعاد صياغتها باستمرار خلال عملية الإدراك تحت تأثير الصور الافتراضية. وبالتالي؛ فإن الكائنات الفعلية هي أيضًا غير ثابتة، لكنها لا تبدو عابرة.

يُمكن ملاحظة هذه الخصائص أو ما شابهها في بعض الكائنات والعوالم الافتراضية التي تُنشئها أجهزة الحاسب. فبعض الكائنات الافتراضية التي تُنشئها أجهزة الحاسب عابرة، تظهر وتختفي في غمضة عين، ليحل محلها كائنات جديدة يُنشئها المُنشئ (كائن بشري فردي أو جماعة وأجهزة الحاسب الآلي الخاصة بها). على سبيل المثال، ينطوي التصميم الحاسوبي على إنشاء نسخ متعددة من كائنٍ ما، يتم إعادة تصميمها وتحسينها وإثرائها باستمرار (Hui, 2016; McCabe, 2019; Meijers, 2009, pp. 48–50). جميع هذه المراحل الانتقالية عابرة، وقصيرة الأجل، وتختفي بسرعة، تاركةً وراءها فقط الكائن "المستهدف" target؛ أي المنتج النهائي، الذي يكون مستقرًا ومتينًا نسبيًا، وغير عابر.

وبالتالي؛ فإنّ الكائنات الافتراضية زائلةٌ بشكلٍ عام إلا في نظرية دولوز، في حين لا تكون العوالم والكائنات الّتي يولدها الحاسوب دائمًا على هذا النحو ـ فالزوال ليس سمةً عامةً لها. تسكن بعض العوالم الافتراضية الوعي البشري ـ الجماعي، وبالتالي الفردي ـ لفتراتٍ طويلةٍ نسبيًا، ويُؤدي هذا الوجود الممتد إلى تغييراتٍ ثقافيةٍ دائمةً نسبيًا (على سبيل المثال، غالبًا ما تُصبح الشخصيات في ألعاب الحاسب الآلي عناصر ثقافية إلى حدٍ ما). أيضًا في الحالة المذكورة أعلاه للعوالم والأشياء

الافتراضية التي تم إنشاؤها بواسطة الحاسوب، تكون بعض الأشياء مؤقتة، لكن بعضها الآخر ـ النتائج النهائية للتصميم ـ تكون مستقرة ودائمة نسبيًا.

تؤثر كلٌ من الكائنات الافتراضية، سواءً تلك التي تُنشئها دولوز أو تلك التي تُنشئها أجهزة الحاسوب، على الكائنات التي تُنشئها: الكائن الفعلي، أو الكائن "المُشكّل" للإدراك في نظرية دولوز، ووعي مستخدم الحاسوب في سياقات المعلوماتية. وفي الحالة الأخيرة، تُغيّر العوالم الافتراضية وعي مُنشئيها. وتُعدّ التفاعلات المتبادلة سمةً مشتركةً تُبرّر، إلى حدٍّ ما، الانتقال من المفهوم الدولوزي إلى الواقع الافتراضي الذي ينشأه الحاسوب.

تنشأ العوالم الافتراضية التي يشكلها الحاسوب وتتشكل في الوعي الذاتي لمنشئيها، ثم تنتقل، عبر التواصل بين الذوات، إلى الوعي الجماعي، في حين تُنشأ الصور الافتراضية عند دولوز لا شعوريًا وتبقى في اللاوعي. وبالفعل، يمكن إضفاء الطابع الموضوعي على الأولى، أي نقلها من الوعي الذاتي الفردي إلى الوعي الجماعي. وفي هذه الحالة، تعني الموضوعية أيضًا الاستقلال الذاتي autonomisation في فهم نظرية العوالم الثلاثة لكارل بوبر Karl Popper (1902-1994)؛ (Popper,1995, pp. 104, 148-150, 209) أي أن الكائنات والعوالم الافتراضية تصبح مستقلة عن مبرمجي الحاسوب ومستخدميه الذين يُنشئونها. الكائنات الافتراضية عند دولوز لا شعورية، وبالتالي لا يمكن نقلها إلى الوعي الجمعي لجعلها متاحة بشكلٍ مشترك بين الذوات ومستقلة، أو مستقلة عن اللاوعي الفرّدي. وبذلك، كما ذكرنا سابقًا؛ فإن وجود الذات في نظرية الإدراك عند دولوز يُعدّ إشكاليًا في أحسن الأحوال.

لعلّ الطبيعة اللاواعية للصور الافتراضية، كما افترضها دولوز، هي العائق الأكبر أمام تطبيق نظريته على مشكلة العوالم الافتراضية المُنشأة حاسوبيًا. فلو قبلنا ادعاءه بأن العوالم الافتراضية لا واعية، فإنا لن تكون قادرةً على الوصول إلى الوعي الفردي، وهو ما يتعارض مع البديهيات الشائعة والمعتقدات ما قبل الفلسفية بشأنها، وطريقة إدراكها. إن وجود العوالم الافتراضية في كلٍّ من الوعي الفردي والجماعي هو ما يجعلها جوهرية للثقافة المعاصرة والبيئة الثقافية الإنسانية المتغيرة، ويُمكّنها، في الواقع، من تغيير البيئة التي يعيش فيها الإنسان. والمقصود هنا هو تحويل العالم الاجتماعي والفردي إلى عالم افتراضي، وهو ما يفصل العالم الإنساني المُنشأ عن الواقع المادي والعلاقات الشخصية المباشرة.

تختلف أصول العوالم والأشياء الافتراضية في علم المعلوماتية عن نشأة الصور الافتراضية في مفهوم دولوز. فالأولى تُنشأ من المعرفة التي يمتلكها الفاعل(سواء كان متخصصًا في الحاسوب computer specialist، أو فنانًا جرافيكيًا graphic artist، أو مصممًا designer، أو حتى مجرد مستخدم للحاسوب) الذي يُنشئها بمساعدة العقل الإلكتروني software، في حين أن الثانية تنشأ في الإدراك كأشياء من الذاكرة تُشكل موضوع الإدراك (الشيء الفعلي). الصور الافتراضية والأشياء الافتراضية التي يولدها الحاسب ليست مادية، بل حقيقية. ومع ذلك؛ فإن هذا التشابه ذو أهمية ثانوية نظرًا لعموميته.

في التفسيرات الحدسية، تتمتع العوالم والأشياء الافتراضية التي تم إنشاؤها في علم المعلوماتية بنمط وجود مختلف عن الأشياء الملموسة المقابلة لها، والتي يمكن أن تكون، على سبيل المثال، المكافئات المادية للأشياء الافتراضية. أما وفقًا لدولوز؛ فإن الصور الافتراضية والأشياء الواقعية هي أشياء معرفية epistemic objects (وليست مستقلة في المقام الأول)، ولها نمط الوجود نفسه ـ فكلاهما ينتمي إلى مستوى التأصيل.

وختامًا؛ فإن الصورة الافتراضية بخصائصها التي حددها دولوز وسياق هذه الخصائص (نظرية الإدراك الموسعة بالذاكرة) لا تُعد خيارًا مناسبًا لتفسير خصائص العوالم الافتراضية التي ينشئها الحاسب الآلي وعناصرها ـ أي الكائنات الافتراضية. بعبارةٍ أخرى؛ فإن نقل مفهوم دولوز عن الواقع الافتراضي إلى مفهوم الواقع الافتراضي في المعلوماتية غير فعال، فهناك اختلافات كثيرة وتشابهات قليلة جدًا بينهما.

ترجمة : د. محمد سيد محمد ابو العلا الدماطي
رئيس قسم الفلسفة ـ كلية الآداب
جامعة بور سعيد ـ مصر

الهوامش

(1) تاريخ القبول: 14 يونيو 2023 / تاريخ النشر الإلكتروني: 6 يوليو 2023. معهد الفلسفة وعلم الاجتماع التابع للأكاديمية البولندية للعلوم، نوفي سفيات 72،وارسو، بولندا. (المؤلف).

(2) ماجلورزاتا تشارنوكا: رئيسة تحرير مجلة "الحوار والشمولية"، رئيسة تحرير مجلة "فلسفة العلوم: دراسات فلسفية ومتعددة التخصصات"، التي أسستها مع زملاء من معهد الفلسفة وعلم الاجتماع التابع للأكاديمية البولندية للعلوم (IFiS PAN) عام 2013. وهي عضوة فاعلة في الجمعية الدولية للحوار العالمي، وانتُخبت لعضوية مجلس إدارتها لثلاث دورات متتالية. وفي إطار نشاطها، نظّمت مؤتمر الجمعية الدولية للحوار العالمي حول القيم والمُثل في وارسو عام 2016 (بالاشتراك مع معهد الدراسات الفلسفية التابع للأكاديمية البولندية للعلوم). وقد عُقد المؤتمر، الذي حمل عنوان "النظرية والتطبيق"، بحضور 162 فيلسوفًا من 30 دولة في 5 قارات، من بينهم 19 باحثًا بولنديًا، وقُدّمت فيه 143 ورقة بحثية. وهي محررة سلسلة النشر "نحو حضارة عالمية" الصادرة عن دار بيتر لانج للنشر.(المترجم).
انظر: https://ifispan.pl/en/members/mczarnocifispan-waw-pl.

(3) ماريوس مازويك: حاصل على درجة الدكتوراه من معهد الفلسفة وعلم الاجتماع، الأكاديمية البولندية للعلوم ومركز البحث والتطوير نتريكس ش.م.(المترجم).

(4) مانويل دي لاندا: أستاذ في المدرسة الأوروبية للدراسات العليا، ولد في في مكسيكوسيتي عام 1952، مُنظِّر وفنان متعدد التخصصات، مقيم في نيويورك. يعمل حاليًا محاضرًا في كلية الهندسة المعمارية بجامعة برينستون (حيث سبق له الحصول على زمالة في معهد الدراسات المتقدمة في عامي 2000/ 2001)، بالإضافة إلى تدريسه في برنامج الدراسات العليا في الهندسة المعمارية والتصميم الحضري في معهد برات. وقد سبق له التدريس في كلية التصميم بجامعة بنسلفانيا، وفي كلية الدراسات العليا للهندسة المعمارية والتخطيط والحفاظ على التراث بجامعة كولومبيا، وغيرها. يحمل شهادة الدكتوراه من المدرسة الأوروبية للدراسات العليا (2010).(المترجم).
انظر: https://pact.egs.edu/biography/manuel-delanda.

(5) سلافوي جيجيك: فيلسوف سياسي وناقد ثقافي سلوفيني المولد. وصفه المنظر الأدبي البريطاني، تيري إيجلتون، بأنه "ألمع" المنظرين المعاصرين الذين برزوا من قارة أوروبا.تتميز أعمال جيجيك بأسلوبها الفريد والمميز. فهي تتضمن انقلابات جدلية لافتة للمفاهيم السائدة؛ وحس فكاهة حاضر في كل مكان؛ وازدراء واضح للتمييز الحديث بين الثقافة الراقية والشعبية؛ ودراسة أمثلة من مختلف المجالات الثقافية والسياسية. ومع ذلك، وكما يحذرنا جيجيك نفسه، فإن لأعماله مضمونًا فلسفيًا جادًا وهدفًا نبيلًا. إنه يتحدى العديد من الافتراضات التأسيسية للأوساط الأكاديمية اليسارية الليبرالية اليوم، بما في ذلك رفع شأن الاختلاف أو الآخرية إلى غايات في حد ذاتها، وقراءة عصر التنوير الغربي على أنه شمولي ضمنيًا، والشك السائد تجاه أي مفاهيم متعالية عن الحقيقة أو الخير.(المترجم). انظر: https://iep.utm.edu/zizek.

(6) انظر على سبيل المثال المرجع نفسه، الفصل 1، حيث ينظر ديلاندا في نظرية التعددية عند دولوز.(المؤلف).

(7) في الفلسفة واللاهوت، يُستخدم مصطلح (imlementence) بمعنى التأصل داخل شيء على حالةٍ ما للدلالة على الملازمة أو "الحلول"، وذلك على عكس مصطلح "التجاوز" (superence)، وهو مصطلح مشتق من الكلمة اللاتينية immanere التي تعني "السُكنى، البقاء". ويُعدّ استخدامه الأهم في المفهوم اللاهوتي لله باعتباره موجودًا في العالم المخلوق وفي جميع أرجائه، على عكس، على سبيل المثال، الربوبية التي تتصوره منفصلًا عن الكون وفوقه. وقد تم التعبير عن هذا المفهوم بأشكالٍ متنوعة، بما في ذلك الإيمان بالله ووحدة الوجود.(المترجم).
انظر: https://www.britannica.com/topic/immanence-divine-attribute.

(8) أكد أرسطو أن الأشكال الحسية بمجرد تحققها تترك آثارًا دائمة في العقل (ميل معين للتحقق)، وبسبب هذا تسمح التجارب الحسية اللاحقة للخيال باستحضار الأشكال الحسية كتمثيلات: التمثيلات هي أشياء مدركة خالية من المادة.(المؤلف).

(9) من غير المؤكد ما إذا كان الإيجاز هو السبب الوحيد لوجود الصور الافتراضية في اللاوعي.(المؤلف).

(10) في كتابه "أعضاء بلا أجساد: دولوز والنتائج"، صفحة 3، يصف جيجيك دولوز بأنه "فيلسوف الواقع الافتراضي"، ويضيف أن فكرة الواقع الافتراضي تعني محاكاة الواقع في بيئةٍ مصطنعة، في حين أن واقع الواقع الافتراضي (الافتراضية) هو واقع الافتراضي نفسه، أي آثاره ونتائجه الحقيقية. يُخطئ جيجيك في هذا، لأن فكرة الواقع الافتراضي لا تعني بالضرورة المحاكاة، بل قد تعني خلق واقع افتراضي وأشياء افتراضية ليست بالضرورة نسخًا من الواقع (كالطبيعة مثلًا). في الواقع، تعني عادةً إنشاء عوالم اصطناعية حقيقية، غير موجودة (ضمن حدود الخيال البشري، الذي ليس له حدود)، وليست نسخًا من الواقع الموجود. فالأشياء الافتراضية لا تُحاكي (نسخ) العالم الموجود فحسب (Kiryushchenko 201).(المؤلف).

(11) يشرح دولوز مفهوم برجسون للواقع الافتراضي في كتابه "برجسونية" (Deleuze, 1991), see among others, p.42; cf. Reyes (2016)). (المؤلف).

(12) إليوت روس ألبرت: حاصلة على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة وارويك.متخصصة في مجال الفلسفة القارية. (المترجم).

(13) مقتبس عن دولوز (2002,p. 158, footnote 8) مقتبس عن برجسون (1988,p. 106).(المؤلف).

(14) انظر: footnote 8, p. 158 في النسخة الإنجليزية من الكتاب الذي اقتبس منه دولوز المقطع المذكور: برجسون (1920,p. 134). النص الأصلي: "يمكن لمس الشيء كما يمكن رؤيته؛ يؤثر فينا كما نؤثر فيه؛ يحمل في طياته أفعالًا محتملة؛ إنه واقعي." (المؤلف).

(15) نفترض هنا أن دولوز يستخدم كلمة "مصطلح" للدلالة على تعبيرٍ لغوي أو مصطلح وليس فترة زمنية، وأن المترجم قد ترجمها وفقًا لذلك (انظر تعريف المصطلح ومعناه في قاموس ميريام ـ ويبستر Merriam-Webster (Definition of terms, 2005). يتضح هذا المعنى جليًا من استخدامه في المقاطع المذكورة هنا.(المؤلف).

أولًا: المصادر

(1) Ansell-Pearson, K. (2005). The reality of the virtual: Bergson and Deleuze. MLN, 120(5)), 1112-1127.https:// doi. org/ 10. 1353/ mln. 2006. 0020.

(2) Bergson, H. (1920). Mind-energy. Lectures and essays (H. W. Carr, Trans.). MacMillan.

(3) Bergson, H. (1988). Matter and memory. Zone Books.

(4) Bluemink, M. (2020). On virtuality: Deleuze, Bergson, Simondon. Epoché Magazine, .36 Retrieved January,7,2023, from https:// epoch emaga zine. org/ 36/ on- virtu ality- deleu ze- bergs on- simon do

(5) Braga, J. (Ed.). (2019). Conceiving virtuality: From art to technology. Springer. https:// doi. org/ 10. 1007/978-3- 030- 24751-5.

(6) Buchanan, I. (2010). A dictionary of critical theory. Oxford University Press.

(7) DeLanda, M. (2013). Intensive science and virtual philosophy. Bloomsbury.

(8) Deleuze, G. (1991). Bergsonism. Zone Books.
(9) Deleuze, G. (1994). Difference and repetition (P. Patton, Trans.). Columbia University Press.
(10) Deleuze, G. (2002). The actual and the virtualDialogues II (pp. 148–152). Continuum.
(11) Deleuze, G. (2004). Desert islands and other texts, 1953–1974. MIT Press.
(12) Deleuze, G. (2015). Logic of sense (C. V. Boundas, M. Lester, & C. J. Stivale, Trans.). BloomsburyAcademic.
(13) Deleuze, G., & Loban, B. (2007). Lecture course on chapter three of bergson's creative evolution. SubStance, 36(3), 72–90. https:// doi. org/ 10. 1353/ sub. 2007. 0040.
(14) Meijers, A. (Ed.). (2009). Philosophy of technology and engineering sciences (1st edn.). Elsevier.
(15) Esposito, J. L. (2007). Virtuality. Digitalpeirce.Fee.Unicamp.Br. Retrieved January 3, 2023, from http://www. digit alpei rce. fee. unica mp. br/p- virtu ality. Htm.
(16) Gray, C. B. (2013). Virtuality in aquinas and Deleuze. The International Journal of Communication and Linguistic Studies, 10(3), 25–36. https:// doi. org/ 10. 18848/ 2327- 7882/ CGP/ v10i03/ 43594.
(17) Hui, Y. (2016). On the existence of digital objects. University of Minnesota Press.
(18) Hulse, B. (2008). On Bergson's concept of the virtual. Gamut: Online Journal of the Music Theory Society of the Mid-Atlantic, 1(1), 42. Retrieved January 3, 2023, from https:// trace. tenne ssee. edu/ gamut/ vol1/iss1/2.
(19) Husserl, E. (1982). Ideas pertaining to a pure phenomenology and to a phenomenological philosophy.Kluwer Boston.
(20) Jaeger, G. (2019). Are virtual particles less real? Entropy, 21(2), 141. https:// doi. org/ 10. 3390/ e2102 0141.
(21) Kalaga, W. (2003). The trouble with the virtual. Symploke, 11(1), 96–103. https:// doi. org/ 10. 1353/ sym.2003. 0013.
(22) Kiryushchenko, V. (2014). The idea of virtuality in Peirce's semiotics and Deleuze's transcendental empiricism:Kantian variations. Retrieved January 3, 2023, from https:// www. acade mia. edu/ 93955 15/ THE_IDEA_ OF_ VIRTU ALITY_ IN_ PEIRCE_ S_ SEMIO TICS_ AND_ DELEU ZE_S_ TRANS CENDENTAL_ EMPIR ICISM_ KANTI AN_ VARIA TIONS.
(23) Lévy, P. (1998). Becoming virtual: Reality in the digital age (R. Bononno, Trans.). Plenum Trade.
(24) Lundy, C. (2017). Tracking the triple form of difference: Deleuze's Bergsonism and the asymmetrical synthesis of the sensible. Deleuze Studies, 11(2), 174–194. https:// doi. org/ 10. 3366/ dls. 2017. 0261.
(25) McCabe, H. (2019). We have always been virtual: Gilles Deleuze and the computer-generated image. In Proceedings of the 9th international conference on digital and interactive Arts (pp. 1–7). https:// doi.org/ 10. 1145/ 33598 52. 33598 95.
(26) Definition of terms. (2005). In The design of an extendible graph editor (pp. 11–14). Springer-Verlag.
(27) ullarkey, J. (2004). Forget the virtual: Bergson, actualism, and the refraction of reality. Continental Philosophy Review, 37(4), 469–493. https:// doi. org/ 10. 1007/ s11007- 005- 7097-z.
(28) Popper, K. R. (1995). Objective knowledge: An evolutionary approach. Clarendon Press.
(29) Rae, G. (2014). Ontology in Heidegger and Deleuze. Springer.
(30) Reyes, R. (2016). Deleuze's Bergsonism: Multiplicity, Intuition, and the Virtual. Kritike: an Online Journal of Philosophy, 10(2), 151–172. https:// doi. org/ 10. 25138/ 10.2. a. 11.
(31) Skagestad, P. (1998). Peirce, virtuality, and semiotic. In The paideia archive: 28th world congress of philosophy(pp. 47–52). https:// doi. org/ 10. 5840/ wcp20- paide ia199 819356.
(32) Smith, D. W. (2009). Deleuze's concept of the virtual and the critique of the possible. Journal of Philosophy:A Cross-Inquiry, 4(9), 34–43. https:// doi. org/ 10. 5840/ jphil nepal 20094 913.
(33) Gaffney, P. (Ed.). (2010). The force of the virtual: Deleuze, science, and philosophy. University of MinnesotaPress.
(34) Weisstein, E. W. (2016). Object data and manifolds. In Wiley series in probability and statistics (pp. 391–397). John Wiley & sons, Ltd.
(35) Žižek, S. (2012). Organs without Bodies. Routledge. https:// doi. org/ 10. 4324/ 97802 03120 392.

ثانيًا: معلومات من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت):

(1) https://ifispan.pl/en/members/mczarnocifispan-waw-pl.
(2) https://pact.egs.edu/biography/manuel-delanda.
(3) https://iep.utm.edu/zizek.
(4) https://www.britannica.com/topic/immanence-divine-attribute.